اللهِ؟ قَالَ: **الصُّحْبَةَ يَا أَبَا بَكْرٍ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ فَخُذْ إِحْدَاهُمَا قَالَ: «**قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ**»[1].

تقول السيدة عائشة ﵂: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ!.

ولما غطى الظلام أحياء مكة، أمر رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ﵁ أن ينام في فراشه، وسلَّمه ما لديه من الأمانات ليردها إلى أصحابها، ثم انطلق بصحبة أبي بكر إلى غارٍ بجبل ثور فدخلاه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي رسول الله ﷺ بأخبار قريش وتحركاتها، أما أسماء فكانت تأتي إلى الغار بالطعام والشراب، حتى خرجا إلى يثرب.

وها هي أَسْمَاءُ ﵂ تروي لنا قصة خروج رسول الله ﷺ، قَالَتْ: صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ فَقُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ: وَاللهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلا نِطَاقِي[2] قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وَبِالآخَرِ السُّفْرَةَ، فَفَعَلْتُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ «ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**أَبْدَلَكِ اللهُ بِنِطَاقِكِ هَذَا نِطَاقَيْنِ فِي الجَنَّةِ**».

وصحت قريش فلم تجد لرسول الله ﷺ أثراً ولا لصاحبه أبي بكر الصِّدِّيق ﵁ أثراً، تقول أسماء: لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت أسماء: والله، لا أدري أين أبي قالت: فرفع أبو جهلٍ يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة خرَّ منها قِرطي،

---

(1) رواه: البخاري/ كتاب: البيوت/ باب: إذا اشترى متاعاً أو دابة فوضعه عند البائع/ برقم: (1994)، والحديث عند البخاري في أكثر من موضع بروايات متعددة.

(2) **النِّطاق**: الحِزام.

(3) رواه: الإمام البخاري/ كتاب: الجهاد والسير/ باب: حمل الزاد في الغزو/ برقم: (2757).

اللهِ؟ قَالَ: **الصُّحْبَةَ يَا أَبَا بَكْرٍ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ فَخُذْ إِحْدَاهُمَا قَالَ: «**قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ**»[1].

تقول السيدة عائشة ﵂: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ!.

ولما غطى الظلام أحياء مكة، أمر رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ﵁ أن ينام في فراشه، وسلَّمه ما لديه من الأمانات ليردها إلى أصحابها، ثم انطلق بصحبة أبي بكر إلى غارٍ بجبل ثور فدخلاه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي رسول الله ﷺ بأخبار قريش وتحركاتها، أما أسماء فكانت تأتي إلى الغار بالطعام والشراب، حتى خرجا إلى يثرب.

وها هي أَسْمَاءُ ﵂ تروي لنا قصة خروج رسول الله ﷺ، قَالَتْ: صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ فَقُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ: وَاللهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلا نِطَاقِي[2] قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وَبِالآخَرِ السُّفْرَةَ، فَفَعَلْتُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ «ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**أَبْدَلَكِ اللهُ بِنِطَاقِكِ هَذَا نِطَاقَيْنِ فِي الجَنَّةِ**».

وصحت قريش فلم تجد لرسول الله ﷺ أثراً ولا لصاحبه أبي بكر الصِّدِّيق ﵁ أثراً، تقول أسماء: لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت أسماء: والله، لا أدري أين أبي قالت: فرفع أبو جهلٍ يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة خرَّ منها قِرطي،

---

(1) رواه: البخاري/ كتاب: البيوت/ باب: إذا اشترى متاعاً أو دابة فوضعه عند البائع/ برقم: (1994)، والحديث عند البخاري في أكثر من موضع بروايات متعددة.

(2) **النِّطاق**: الحِزام.

(3) رواه: الإمام البخاري/ كتاب: الجهاد والسير/ باب: حمل الزاد في الغزو/ برقم: (2757).

قالت: ثم انصرفوا، فمضى ثلاث ليالٍ، ما ندري أين توجَّه رسول الله ﷺ، ثم علمنا أنه قصد المدينة ومعه أبي وعامر بن أبي فهيرة مولى أبي وعبد الله بن أُريقط دليلهم.

ذكاء فريد!

روى الإمام أحمد قال: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: «لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ – خَمْسَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةَ آلافِ دِرْهَمٍ – قَالَتْ: وَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ! قَالَتْ: قُلْتُ: كَلا يَا أَبَتِ، إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيراً!

قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَتَرَكْتُهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ... قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لا بَأْسَ، إِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلاغٌ.

قَالَتْ: لا وَاللهِ، مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ»[1].

رابطة الإسلام تعلو

وكانت أسماء معتزة بدينها، وملتزمة بأحكامه، وقد دفعها ورعها إلى

(1) رواه: الإمام أحمد/ كتاب: باقي مسند الأنصار/ باب: حديث أسماء بنت أبي بكر/ برقم: (25719).

سؤال رسول الله ﷺ عما إذا كان يجوز لها أن تستقبل أمها وهي على شركها، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَوْ رَاهِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟، قَالَ: «نَعَمْ»[1].

و في رواية أخرى قال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ**»[2]. وكانت أسماء رضي الله عنها قد امتنعت عن إدخالها بيتها، فلما سمعت قول رسول الله ﷺ أذنت لها بالدخول وقبلت هديتها.

لله درُّكِ يا أسماء! لقد آثرَتْ شرع الله ولم تدع عاطفتها والرابطة التي تربطها بأمها تحكم تصرفاتها، بل حكَّمت الإسلام، وألزمت نفسها بحكمه، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: 31، 32].

وإن تقوى أسماء بادية بغير خفاء، جليَّة أيَّما جلاء، لا يَعْروها شكٌّ ولا ارتياب.

أم أول مولود

وبعد أن أدَّى عليُّ بن أبي طالب أمانات رسول الله ﷺ إلى أهلها، خرج بآل النبي ﷺ، وخرج عبد الله بن أبي بكر بزوج أبيه أم رومان وأختيه عائشة وأسماء مهاجرين إلى المدينة، وكانت أسماء تحمل في بطنها مهاجراً صغيراً.

---

(1) رواه: مسلم/ كتاب: الزكاة/ باب: فضل النفقة على الأقربين والزوج والأولاد/ برقم: (1670).

(2) رواه: مسلم/ كتاب: الزكاة/ باب: فضل النفقة على الأقربين والزوج والأولاد/ برقم: (1671).

وما كاد يستقر مقامها في المدينة حتى وضعت مولودها، فحملته أختها عائشة ﵂ وانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فحنّكه وسمّاه عبد الله.

الزوجة الصابرة

عاشت أسماء مع الزبير عيشة فَقْرٍ وكَفَافٍ، وأرهقتها أعمال البيت وسياسة فرس زوجها الزبير، وفوق ذلك كان زوجها يشتد في معاملته، ولما شكت ذلك إلى أبيها الصِّدِّيق ﵁ أوصاها بالصبر.

ثم ما لبث وضع الزبير أن تحسَّن، وفاض المال بين يديه، ولكن هل غيَّر المال طبع ذات النطاقين؟ لا، إن أسماء كانت غنية النفس، ولن يؤثِّر عَرَضُ الدنيا فيما جُبلت عليه؛ لقد كانت كريمة كثيرة الصدقة، وإذا نزل بها المرض ثم شفيت كانت تبادر إلى إعتاق مواليها وعبيدها شكراً لله، واعترافاً له بالفضل، وكانت توصي أولادها بالبذل والإنفاق، وتقول لهم: «أنفقوا، وتصدقوا، ولا تنتظروا الفضل».

ولقَّنت نصيحة أبيها لها بالصبر إلى أولادها، وزرعت في نفس ولدها عبد الله مكارم الأخلاق، كان الزبير يردفه خلفه حين يخرج للقاء المشركين حتى يتعلَّم فنون القتال، ويحذق الفروسية، وكان يتلقَّى من أبيه أبلغ دروس الكرم، ويشهد معه أساليب المناجزة والنزال؛ وأما أسماء فكانت تُذكي في ابنها روح الحماسة لنصرة دين الله، والوقوف مع الحق في كل آن.

وذات يوم اختلفت أسماء والزبير فضربها، فاستغاثت بابنها عبد الله، ولما أراد الدخولَ عليهما قال له أبوه: إن دخلت فأمك طالق، ودخل عبد الله لينجدها، فبانت وتمَّ الفراق.

وأقامت أسماء مع ابنها عبد الله، وكان النبي ﷺ يرعاها ويُغدق عليها من علمه وهديه ودعائه، وأصابها ورمٌ في عنقها ذات مرة، فمسح رسول الله ﷺ بيده الشريفة عليه فشفاها الله، وكانت الصدمة الكبرى لأسماء يوم انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد حزنت عليه أشد الحزن لرحمته بها،

وعطفه عليها، وانهدَّ برحيله ركنٌ شديد كانت تستند إليه، ثم لم تلبث أن فقدت ركنها القوي الثاني يوم رحل والدها الصِّدِّيق ﷺ.

شجاعة وثبات نادرين

وأخذت أسماء تقطع أيامها مع ولدها عبد الله الرجل الذي صنعته على عينها، وغذَّته بالشمائل المحمدية، وتوالت الأيام، وكبر الفارس المقدام، وأصبح عبد الله رجلاً ذا رأي حازم، وسيف صارم.

وحين آل الأمر إلى يزيد بعد وفاة والده معاوية بن أبي سفيان، حاول يزيد استمالة عبد الله إليه، فلم يجد لرغبته أذناً صاغية عنده، فهدَّده وتوعَّده، ولكن الموت عاجله، وحال دون الوصول إلى مبتغاه.

ولم يستطع مروان بن الحكم إخضاع عبد الله إليه، ولما خلفه ولده عبد الملك بن مروان اتَّفق مع واليه على العراق الحجَّاج بن يوسف الثقفي بالتوجُّه إلى مكة والقضاء على ابن الزبير بالقوة.

وجاء الحجَّاج بجيشه، ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس، وراح يرشق المسجد الحرام والكعبة المشرفة، لأن عبد الله وأعوانه قد لجؤوا إلى داخله، وشدَّد الحجَّاج الحصار على ابن الزبير وصحبه، ولما اشتدت وطأة الحصار أخذوا يتخلون عنه وينحازون إلى خصمه.

واغتنم عبد الله فرصة وأقبل على أمه يلتمس نصحها، ويستأنس برأيها الرشيد، وشرح لها تخلي أصحابه عنه، واشتداد الحصار عليه، فقالت: يا بنيَّ، إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل.

فقال: أخشى إذا أنا قُتلت أن يُمثِّلوا بي.

فقالت: إن الشاة يا بني لا يهمها سلخها بعد ذبحها فامضِ على بصيرتك واستعن بالله.

وخرج عبد الله وراح يقاتل بشجاعة ويقول:

أَسْمَاءُ إِنْ قُتِلْتُ لا تَبْكِيْنِي لَمْ يَبْقَ إِلاَّ حَسَبِي وَدِيْنِي
وَصَارِمٌ لانَتْ بِهِ يَمِيْنِي

ولكن أنَّى له أن يصمد أمام حشود البغي؟ وفيما كان يقاتل سقطت إحدى شرفات المسجد عليه فصرعته، وقد روى الإمام مسلم حديث مقتله في صحيحه فقال: حَدَّثَنَا عُقْبَةُ بْنُ مُكْرَمٍ الْعَمِّيُّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ - يَعْنِي: ابْنَ إِسْحَقَ الْحَضْرَمِيَّ - أَخْبَرَنَا الأَسْوَدُ بْنُ شَيْبَانَ، عَنْ أَبِي نَوْفَلٍ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عَقَبَةِ الْمَدِينَةِ قَالَ: فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ، حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ؛ أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا؛ أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتَ - مَا عَلِمْتُ - صَوَّامًا قَوَّامًا وَصُولاً لِلرَّحِمِ؛ أَمَا وَاللهِ لأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لأُمَّةٌ خَيْرٌ» ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِ اللهِ وَقَوْلُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ، فَأُلْقِيَ فِي قُبُورِ الْيَهُودِ.

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ: لَتَأْتِيَنِّي أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِكِ قَالَ: فَأَبَتْ، وَقَالَتْ: وَاللهِ لا آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إِلَيَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بِقُرُونِي.

قَالَ: فَقَالَ: أَرُونِي سِبْتَيَّ فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بِعَدُوِّ اللهِ؟

قَالَتْ: رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ؛ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ؟! أَنَا وَاللهِ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَنِطَاقُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لا تَسْتَغْنِي عَنْهُ؛ أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا، فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلا إِخَالُكَ إِلا إِيَّاهُ» قَالَ: فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا بِشَيءٍ[1].

(1) رواه: مسلم/ كتاب: فضائل الصحابة/ باب: ذكر كذاب ثقيف ومبيرها/ برقم: (4617).

وبعد أن صُلب عبد الله دخل ابن عمر ﷺ المسجد فقيل له: «إن أسماء أم عبد الله في ناحية المسجد»، فذهب إليها وقال: «إن هذه الجثث ليست بشيء، وأما الأرواح فعند الله، فاتَّقي الله، وعليكِ بالصبر» فقالت: «وما يمنعني وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل؟».

وفاتها

وبعد أيام اشتاقت أسماء إلى ولدها عبد الله فشدت إليه الرحال، رحمهما الله وجَمعهما في جنة الخلد ورضي عنهما.

obeikandl.com